المحاضرة الاولى

مقدمة في اللغة الآرامية

اللغة الآرامية هي إحدى اللغات السامية , وتعد واحدة من أهم لغات العراق القديم ، وتتفرع منها مجموعة عديدة من اللهجات التي انتشرت في العراق وفي بلاد الشام والأردن وشمال الحجاز وغربه، وتؤرخ الكتابات الآرامية الأولى الى المائة التاسعة قبل الميلاد، ومازالت بعض اللهجات الآرامية إلى اليوم محكية في العراق و سويا وفي قرى طور عابدين جنوب تركيا وفي البطائ ح فيما بين العراق الجنوبي وإيران, وفي لهجة الصابئة المندائيين.

البدايات الاولى للغة الآرامية في بلاد الرافدين

جاء أول ذكر للآراميين في الحوليات الآشورية منذ المائة الرابعة عشرة ق.م. في حوليات الملك ادد نيراري الاول 1275-1307 ق.م. باسم ، أرِم ،أرَمُ (أخ ل مُ) ، وارم قبائل آرامية بدوية كانت تجول في غرب العراق, وعند استقرارها في بلاد الرافدين وسوريا لم يكن لها لغة فصيحة مكتوبة , لذا فقد تبنى ملوكها لغات الأقوام التي جاوروها, وهذا نراه واضحاً في كتابات الملك الآرامي " كفارا " في غوزانا في سوريا مكتوبة بالآشورية و بالخط المسماري ، ونقش الملك كلمو ملك سمأل مكتوبا باللغة الفينيقية .

وفي نص يعود للملك تجلات بلاصر الأول (١١١٥–١٠٧٧ ق.م) ورد فيه أخبار عن سيطرة القبائل الآرامية على أواسط الفرات وأعاليه ، وورد في نصوص اخرى تعود للملك نفسه ذكر اسماء ست وثلاثين قبيلة آرامية استوطنت شرق دجلة وأواسط الفرات، فضلاً عن وجود ممالك وقبائل آرامية كانت قد استوطنت بلاد الشام.

لقد تنامى نفوذ الآراميين واصبحوا يهددون استقرار المملكة الآشورية ، مما دفع ملوكها إلى القيام بحملات عسكرية ضدهم هدفها القضاء على نفوذهم المتنامي , اعقبها عمليات ترحيل واسعة لهم من أماكن استيطانهم إلى أماكن أخرى في المملكة الآشورية للحيلولة دون توحدهم. فقد ذكر أن تجلات بلاصر الثالث رحل خلال سنة واحدة (٧٤٢-٧٤١ ق.م) ثمانية عشر ألف آرامي من الضفة اليسرى لنهر دجلة إلى شمال سوريا.

وكان لعمليات الترحيل هذه اثر كبير في انتشار اللغة الآرامية في ارجاء المملكة الاشورية ، لم يتمكن الملوك الآشوريون بعدها من السيطرة عليه أو إيقافه ، وذلك لما تمتاز به هذه اللغة من مرونة في النطق وسهولة في التعبير فضلاً عن أبجديتها وسهولة خطها مقارنة مع لغة الآشوريين .

وهكذا صار لزاما على ملوك اشور استخدام اللغة الآرامية وصاروا مضطرين على تعيين كتّاب آراميين إلى جانب الكتبة الآشوريين في بلاطهم ، وهذا نجده في احد الرسوم التي كانت تزين قصر تل بارسيب الذي يعود لزمن الملك تجلات بلاسر الثالث اذ يظهر فيه كاالذي صور كاتبين أحدهما ارامي يكتب بالخط الارامي على رقعة من الجلد والآخر آشوري يكتب بالخط المسماري على رقيم طيني ، ويمكننا تحديد ذلك من خلال مسكهما اداة الكتابة وحركة اليد لكليهما , فضلا عن اشكالهما ولباسهما .

الرسم الجداري للكاتبين الآشوري والآرامي في تل بارسيب

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد ورد ذكر الكاتب الارامي في النصوص الآشورية بصيغة (lu.a.ba.meš kur aramaia) ، فالجزء الأول(lu.a.ba. meš) ، تعني باللهجة الآشورية الحديثة (كتّاب) ويترجم حرفياً (رجال الألف باء)، ويعني المصطلح كله (الكتبة الآراميون).

وتشير بعض النصوص الآشورية إلى اسماء كتّاب آراميين في البلاط الآشوري، مثل كاتب القصر (أباكَو) في عصر الملك سنحاريب، كما تشير نصوص أخرى تؤرخ إلى القرن السابع قبل الميلاد اسماء كتاب اراميين , مثل : نوريا , أحو، عوبري، حمّالا و أيلي.

كما ورد ذكر اللغة الآرامية في بعض المراسلات الآشورية , مثل:

١. رسالة مرسلة من قبل حاكم صور المدعو " قوردي–آشور–لامور" إلى الملك تجلات بلاصر الثالث أو إلى سرجون الثاني يقول فيها (بعثت نابو– اوشيزب مع الرسالة الآرامية من مدينة صور) .
٢. رسالة أخرى يذكر كاتبها أن الأشخاص الستة المعروفين بالأسماء وفق ماهو مدون في الوثائق الآشورية والآرامية عليهم دفع الفضة كاملة (ضريبة الرعاة) في نهاية السنة .
٣. رسالة نجد فيها أن الملك الآشوري سرجون الثاني يؤنب احد عماله على بلاد بابل بعد أن طلب منه أن يكتب إليه بالآرامية (استنادًا إلى ما كتبت إذا كان مقبولا للملك دعني اكتب وابعث رسائلي للملك بالآرامية على رسائل ملفوفة) ، وكان جواب الملك (لماذا لا تكتب رسائلك بالاكدية على رقم طينية ؟ رسائلك التي كتبتها يجب أن توقف بهذا الأمر الملكي) .
٤. رسالة بعثها حاكم آشوري إلى ملكه يقول فيها (الرسالة الآرامية التي كتبتها للملك سيدي) .

ومن خلال هذه الرسائل يمكننا نستدل على المكانة المهمة التي احتلها الكتّاب الآراميون في المجتمع الآشوري وحصولهم على وظائف بارزة في القصر الملكي ، وهي أيضا دليل على استخدام وانتشار اللّغة الآرامية في بلاد آشور.

ويروي لنا العهد القديم محاورة دارت بين القائد الآشوري (رب – شاقا) وسفراء حزقيا ملك يهوذا عند محاصرته لأسوار أورشيلم سنة ٧٠٠ق.م، حيث طلبوا منه أن يكلمهم بالآرامية بدلاً من العبرية لئلا يسمع الحراس المكلفين بحماية الاسوار كلامه .

((كلمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور)) الملوك الثاني ١٨:٢٦

((فقال الياقيم وشبنة ويؤاخ لربشاقا: كلمنا نحن عبيدك بالآرامية لأننا نفهمها، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع هؤلاء الرجال القائمين على السور)) اشعيا ٣٦: ١١ .

ومن هذه المحاورة يتضح لنا أن سفراء الملك اليهودي كانوا يعلمون أن القائد الآشوري (رب شاقا) يتكلم الآرامية، ونستدل من هذا ايضا أن اللغة الآرامية كانت واسعة الانتشار في المملكة الآشورية وغيرها وربما كانت تمثل لغة ثانية في ارجاء المملكة , وما يدعم رأينا هذا هو العثور على العديد من المكتشفات الأثرية التي تحمل كتابات آرامية إلى جنب الآشورية. اذ عثر في نمرود (كالح) على عدة تماثيل لأسود كانت تستعمل للوزن تحمل في أغلب الأحيان الى جنب الكتابة المسمارية كتابة آرامية تشير إلى ذلك الوزن ، وهي تحمل أسم الملك شلمنصر أو سنحاريب , كما عثر على العديد من القطع النقدية والصكوك المكتوبة بالخط المسماري تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وعليها كتابة آرامية. وعثر ايضا على أختام من الفخار كتبت بالآرامية فقط في نينوى وأشور وغوزانا. و هذه كلها ادلة تؤكد على انتشار اللغة الآرامية في القرن السابع ق.م في المملكة الآشورية.

ولم يكن انتشار الآرامية مقتصراً على بلاد الرافدين وسوريا، بل امتدت الى فلسطين، وكان ذلك بعد ان سقطت السامرة عاصمة المملكة الشمالية (إسرائيل) على يد سرجون الثاني(٧٢٢-٧٠٥ ق.م) ورحل سكانها إلى مناطق مختلفة من مملكته اذ قام بنقل أقوام من بابل وكوثا وأقوام من حماة إلى أراضي مملكة إسرائيل ووطنّهم بدلا من أهلها، ورفع الحدود بين الممالك اليهودية والممالك الآرامية في بلاد الشام فاختلط الشعبان وانتشرت الآرامية هناك.

ومنذ ذلك الحين وحتى سقوط بابل على أيدي الفرس سنة ٥٣٩ ق.م استخدم اليهود الذين استوطنوا ارض بلاد الرافدين الآرامية بدلا عن العبرية وكتبوا بها , فتركوا خطهم العبري القديم واختاروا الخط الآرامي المعروف بالمربع في كتابة أسفار التوراة.

اللغة الآرامية في العصر البابلي الحديث

في سنة ٦٢٦ ق.م أعلن نبو بلا صر نفسه ملكا على بابل بعد تمكنه من طرد الأشوريين ومن ثم القضاء على حكمهم بعد ان سقطت نينوى عاصمة حكمهم على يديه في سنة ٦١٢ ق.م. ، ونبوبلاصر ينتمي الى قبيلة آرامية تدعى كلدو ، وفي هذا العهد اصبح من العسير التفريق بين البابليين والآراميين , فقد اختلط الجميع وتمازجوا بقوة وعمق في اطار ثقافة مزدوجة بابلية وآرامية فانتشرت اللغة الآرامية وعاشت اوج ازدهارها ، الاّ اننا نجد الكتابات المسمارية في ذلك العهد كثيرة إذا ما قورنت بالكتابات الآرامية، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أن اللغة الآرامية كانت تكتب على لفائف البردي وعلى الجلود، وهذه العناصر تتأثر بالمتغيرات البيئية ، في حين أن اللغة الاكدية كانت تكتب على رقم الطين المفخورة ، وهي بطبيعة الحال لا تتأثر بالمتغيرات البيئية , ومع هذا فقد عثر في سبار وفي بابل وفي مواقع اخرى تعود الى عهد نبوخذنصر ونبونائيد على كتابات آرامية الى جنب الكتابات المسمارية ، كما وجد في بابل طابوق استخدم في تشيد المباني الرسمية لنبوخذنصر يحمل كتابات مسمارية وأخرى آرامية ، وهذه أشارة مهمة نستدل منها على سير اللغة الآرامية ردحاً من الزمن إلى جنب اللغة الأكدية .

وفي عهد نبوخذ نصر (٦٠٥- ٥٦٢م) تم القضاء على مملكة يهوذا الجنوبية وتم ترحيل سكانها اليهود إلى بابل وماحولها ، خلال حملتين ، الأولى سنة ٥٩٧ ق.م، والثانية ٥٨٧ق.م. , وقدرت اعداد اليهود المرحّلين بـ(٦٢٠٠٠- ٧٠٠٠٠) من الرجال والنساء , وقد وعثر خلال التنقيبات في نفر على العديد من الرقم الطينية – وهي محفوظة الآن في المتحف العثماني باسطنبول- تعود إلى أيام الملوك الاخمينيين ارتحشستا الأول وداريوس الثاني (٤٦٤- ٤٠٥ق.م) تذكر أن عدداً كبيراً من اليهود المرحلين استقروا في نفر وما حولها. وان هذه الأعداد الكبيرة من اليهود خالطت البابليين وتعلمت اللغة الارامية التي يبدوا انها كانت شائعة انذاك , لذا فان كهنتهم قد كتبوا بعض اسفار التوراة العبرية باللغة الارامية , وقد ذكر هاري ساكز في كتابه "عظمة بابل" : أن من مزايا اللغة الآرامية في العهد البابلي أنها كانت اللغة الأم لمجموعة

من الأجناس البشرية أكثر انتشاراً من مجموعة المتكلمين باللغة الأكدية. وفي هذا اشارة واضحة الى انتشار وهيمنة اللغة الارامية في العصر البابلي الحديث .